(الحماسة) في رسالة ماجستير

الشاعر المضحكي: الشعر النبطي ديوان البادية

■ الوسط - محرر التراث

□ يستمد اللقاء بالشاعر عبدالرحمن المضحكي أهميته من نيل الرجل درجة الماجستير مؤخراً عن رسالته «الحماسة في الشعر النبطي في البحرين» باعتبارها أول رسالة جامعية تتناول هذا الموضوع على مستوى دول الخليج.

وبحكم اهتمامات الرجل المرتبطة بالأدب الشعبي حيث وضع عدداً من الدراسات والبحوث إضافة إلى مشاركاته المتعددة في الأنشطة المرتبطة بهذا الأدب... التقته «الوسط» لتسليط الضوء على بعض ملامح الدراسة التي وضعها حول الشعر النبطي.

عبدالرحمن شاهين المضحكي

□ من اين نبعت فكرة هذه الدراسة؟

– اتيحت لي الفرصة بدعم من القيادة العامة لقوة الدفاع لمواصلة الدراسات العليا وطلب مني تقديم افكار لكي اقدم بناء عليها اطروحة الماجستير فكان من ضمن العناوين (الحماسة في الشعر النبطي في البحرين) ولقد تم اختياره من قبل لجنة الدراسات برئاسة رئيس هيئة الأركان سعادة اللواء الركن الشيخ راشد بن عبدالله آل خليفة لكي يكون موضوعا لرسالة الماجستير، وبناء عليه بدأت العمل في هذه الدراسة واتممتها في العام 2001.

□ ما هو السبب الذي جعلك تخوض مثل هذه التجربة؟

– ان التجربة تعتبر في موضوعها جديدة لم يقم احد في الخليج بدراستها، فموضوع الحماسة درس كثيرا بالنسبة للشعر الفصيح ولكن بالنسبة للشعر النبطي فهو جديد على الساحة الشعبية ولقد قمت قبيل الشروع في كتابة هذه الدراسة بالبحث في جامعات دول الخليج عن هذا الموضوع او موضوع شبيه له فلم أجد وبعد ذلك تقدمت به الى كلية الاداب قسم اللغة العربية وتمت الموافقة عليه بعد ندوة استمرت قرابة الساعتين تمت فيها مناقشتي في موضوع هذه الدراسة وابوابها ولقد استفدت من توجيهات هيئة الاساتذة الذين حضروا هذه الندوة ولقد رحبوا بهذه الفكرة وكلفت من قبل المشرف على الرسالة بأن اقوم بجمع مادة الدراسة ميدانيا.

□ ماذا تناولت بشكل موجز في هذه الدراسة؟

– بدأت الدراسة بمقدمة عن الحماسة في الشعر النبطي في البحرين. ثم تطرقت في الفصل الاول الى الشعر النبطي في البحرين من ناحية:

اولا: التعريف بالشعر وفنونه. وشمل هذا الفصل التعريف بفنون الشعر من ناحية التطرق الى القصيدة والسامري والعرضة.

ثانيا: تطرقت الى الاوزان التي نظم فيها شعراء النبط في البحرين وهي (بحر الهلالي – والمسحوب – والصخري – والهجيني – والحداء – والسامري – واللعبوني – والمروبع – والعرضة – ونماذج اخرى).

ثالثا: تطرقت في الجزئية الثالثة من هذا البحث إلى الزحافات والعلل التي اتت على الاوزان النبطية. وتطرقت في الجزئية الرابعة من الفصل الاول الى موضوعات الشعر النبطي في البحرين – وهي كالآتي: (الحماسة – المديح – الحكمة – القصائد الاجتماعية – السياسية – الدينية – الوجدانية).

هذا فيما يتعلق بالفصل الاول. أما بخصوص الفصل الثاني فتطرقت في البحث الاول إلى (موضوعات شعر الحماسة) فبدأت:

اولا: بدراسة شعر الحماسة ونظام الحكم وبينت كيف رسخ شعر الحماسة الانتماء والولاء للقادة والحكام في البحرين من خلال القصائد الحماسية، وقصائد الانتماء الوطني والسياسي.

ثانيا: تطرقت الى شعر الحماسة والتاريخ وكيف سجل الشعر النبطي من خلال ما خلفه لنا الاجداد من وقائع تاريخية سجلها الشعر النبطي واعتبرها بمثابة وثيقة تاريخية مهمة، ثم تطرقت الى مقارنة المأثورات الشعبية الشعرية بالمصادر التاريخية الاخرى.

ثالثا: تطرقت في الجزئية الثالثة من الفصل الثاني إلى الجديد من الحماسة:

(دخول المديح في الحماسة – ظهور الشعر الوطني – انفصال جزئي للحماسة عن المناسبة).

ثم تطرقت في الجزئية الرابعة من الفصل الثاني إلى شعر العرضة باعتباره مظهراً من مظاهر الشعر الحماسي في البحرين.

هذا فيما يتعلق بالمبحث الاول من الفصل الثاني. أما بخصوص المبحث الثاني فتطرقت فيه الى شفوية الشعر النبطي والاختلافات التي تحدث في القصائد المسجلة من الرواة.

الفصل الثالث تطرقت فيه الى خصوصية الشعر النبطي في البحرين وتناولت فيه النقاط الآتية: (الخصائص اللغوية والنحوية – الحقول الدلالية – الصور والاخيلة في الشعر النبطي – الامثال الشعبية في القصائد النبطية – التضمين).

ثم وضعت بعد ذلك ملحقا بمعاني بعض المفردات ثم قائمة المراجع ومصادر المادة الميدانية.

□ ما هو الهدف من عمل مثل هذه الدراسة؟

– بما ان الشعر الفصيح ديوان العرب فإن الشعر النبطي يمكن ان يكون ديوان البادية وهذا يشكل سببا وجيها وهدفا لدراسة هذا الشعر. والهدف من هذه الدراسة هو الحفاظ على ما خلفه لنا الاجداد والاباء من امجاد وبطولات.

□ في اعتقادك ما الذي تضيفه هذه الدراسة الى الادب الشعبي؟

– يعتبر هذا العمل اضافة جديدة الى المكتبة البحرينية بصفة خاصة والمكتبة العربية بصفة عامة، كما اشرت سابقا الى ان هذا العمل لم يدرس دراسة ميدانية كموضوع متخصص بالنسبة للأدب الشعبي حيث ان ميدان العمل الشعبي واسع وكبير والخوض في بحر هذا الادب لم يكتمل بعد ولم تستخرج جميع مكنوناته والعمل الذي قدمته يعد نقطة بحر في هذا الادب الشعبي العميق والطريق مفتوح امام الباحثين والمهتمين لخوض مثل هذه التجارب واستخراج مكنونات هذه الكنوز الاصلية من التراث الشعبي الراسخ الجذور في هذا الميدان البكر.

□ تستحق مثل هذه الدراسة ان تتبناها جهة معينة تقوم بطباعتها وتوزيعها على مستوى دول الخليج لتتعرف الدول الاخرى على الادب الشعبي البحريني. هل عرضت هذه الفكرة على جهة معينة لتقوم بذلك لما لهذه الرسالة من اهمية؟

– لم اعرض على اي جهة طباعة هذه الرسالة فأرجو من وزير الاعلام نبيل بن يعقوب الحمر تبني هذه الفكرة حيث ان له مواقفه تجاه نتاج الشباب وتشجيعهم وتبني اعمالهم.

□ لماذا لم يسلط الاعلام بشكل عام الضوء على هذه الدراسة؟

– نشر خبر عن هذه الرسالة في جريدة الايام واخبار الخليج، ولكن تسليط الاضواء عليها بمستوى اكبر لم يحصل الى الآن وهذا السؤال متروك المجال للاجابة عنه لمن يعنيهم الامر!!.

□ اضافت هذه الدراسة رصيدا الى اصداراتك وكشفت عن عمق ثقافتك واهتمامك وحفاظك على الموروث الشعبي، ماذا بعد هذه الدراسة؟

– هناك العديد من الاعمال المخطوطة التي اتمنى ان ترى النور ومنها:

(المنهج التكاملي في قصائد النبط للوائلي – دراسة حول الشعر النبطي للشاعر محمد بن عيسى آل خليفة)، (جرات القلم – كتاب يضم ما كتبته من مواضيع مختلفة وابحاث صغيرة في اثناء الدراسة الجامعية)، (تراثنا ماضينا وحاضرنا – كتاب عن التراث بكل ما يحتويه من قيم وعادات وتقاليد وامتدادها للحاضر)، (حكايات من البحر– كتاب يحتوي على حكايات وروايات رويت على ألسن رجال عاصروا مهنة الغوص ومخاطرها)، (النزعة القومية في شعر احمد بن محمد آل خليفة الفصيح).

مجهر

من أين لك هذا

■ الوسط - جعفر الجمري

□ قال إياس: وُجد لجوهر الصقلي بعد عزله ووفاته من الأموال ما لا يحصى. فمن جملة ذلك من الذهب العين 600,000 دينار، ومن الدراهم 4000,000 درهم ومن اللؤلؤ الكبار واليواقيت أربعة صناديق مجلّدة، ومن القصب الزمرّد 1000 قصبة، ومن الثياب الديباج ورق تنيس 75000 ألف قطعة، ووجد عنده دواة من الذهب طولها ذراع وهي مرصّعة بالدر والياقوت فقوّم ما عليها من الجواهر بـ 12000 دينار، ووجد عنده لعبة من المسْك والعنبر الخام اذا نزع ثيابه ألبسها عليها، ووجد في داره عدّة مسامير من الذهب على كل مسمار منها عمامة لون، ووجد عنده من الملاعق الذهب والفضة 3000 ملعقة، ووجد عنده 10000 زبْدية صيني وبلّور وفضّة، ووجد عنده 4 قدور من الذهب وزْن كل قدر 100 رطل ذهب قيل انه كان يطبخ فيها المسلوقة، ووجد عنده 700 خاتم بفصوص من الياقوت والزمرّد والماس، ووجد عنده 3000 نرجسية ذهب، و فضّة وبلّور وصيني، هذا كله خارج عن البغال والجمال والخيل والعبيد والجواري والفرش والاملاك والضياع وغير ذلك.

«من مذكرات أمين باشا سامي»

صفْعه...

قال الجاحظ: رأيت معلّماً في الكتّاب وحده، فسألته السبب... فقال: الصغار داخل الدرب يتصارعون... فقلت: أحب أن أراهم... فقال: ما أشير عليك بذلك... وإن كنت مصّراً، فادخل عليهم كاشفا رأسك لئلا يعتقدوك المعلّم، فيصفعوك حتى تعمى!

ثمن

«ارسل ابن المقفع للمنصور كتاباً صغير الحجم عظيم القيمة أسماه «رسالة الصحابة» نصح فيه الخليفة بحسن اختيار معاونيه وحسن سياسة الرعية... فعوقب لأنه تجرأ على النصح والارشاد، بتقطيع أطرافه قطعة قطعة «وأحمى له تنّوراً، واخذ يقطعه إربا اربا و يلقيه في ذلك التنّور حتى حرقه كله، وهو ينظر إلى أطرافه كيف تقطع ثم تحرق ... وقيل غير ذلك في وصف قتله».

أضحية

ورد في «البداية والنهاية» لا بن كثير و «مروج الذهب» للمسعودي:

وقف خالد بن عبدالله القسري والي الكوفة يخطب على المنبر خطاباً جامعاً: قال في نهايته: «أيها الناس، اذهبوا وضحّوا بضحاياكم، تقبّل الله منّا ومنكم، أما أنا فاني مضحّ بالجعد ابن درهم، فانه يقول ما كلّم الله موسى تكليماً، ولا اتخذ ابراهيم خليلا! تعالى الله عمّا يقول علّوا كبيرا»... ثم نزل واستل سكينا و ذبحه أسفل المنبر!.

حفرة فيها دم

«كان القطب الصوفي (عمر السهْروردي) في مجلسه فأنشد:

ما في الصحاب أخو وجْد تطارحه
إلاّ محبّ له في الركب محبوبُ
وكرّره فلم يتأتَ له إكماله... فقام شاب وأنشد...
كأنّما يوسفٌ في كلّ راحلةٍ
له وفي كلّ بيت منه يعقوبُ

فصاح القطْب، ونزل من على المنبر وقصد الشاب فلم يجده، ووجد مكانه حفرة فيها دم».

أمْنية

«لما حضرت الوفاة عبدالملك بن مروان قال: ليتني كنت غسّالا أعيش بما أكسب يوماً بيوم... فقال أحد الزهّاد:

الحمد لله الذي جعل الملوك عند الموت يتمنّون ما نحن فيه ولا نتمنى عند الموت ما هم فيه».

ضالّة و فاسق

«نقل عن الحجّاج أنه قال: أمرنا الله بطلب الآخرة وضمن لنا مؤونة الدنيا فيا ليته ضمن لنا الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا». وحين نقل قوله هذا إلى الحسن البصري قال: «ضالّة مؤمن عند فاسق».

صناعة النرجيلة «الشيشة»

■ بيروت - ربيع فواز

□ النرجيلة، أو «الشيشة» بلغة أهل مصر، واحدة من أدوات التسلية الأكثر شيوعاً في عالمنا العربي، فهي كالخبز اليومي، أو كشقيقتها السيجارة، حاضرة في حياتنا، تفرض على مجالسنا قرقرتها وخَدَرها وجوَّها الحالم.

نرجيلة ينسب إليها الناس فعل التعويذة في طرد الهموم، حتى قالوا: «دخِّن عليها تنجلِ»، وحتى غفلوا، أو تغافلوا، عن ضرر تلحقه بالصحة، فمن ادرك انها ضارة قال: «هي أهون الشَّرين»، مقارنة بالسيجارة.

حاضرة هي في الصالونات والشرفات والمقاهي والمطاعم، وحتى الأرصفة. ومن تعلَّق بها – إذ هي أيضاً وسيلة إدمان – حملها في سيارته ودخَّن تنباكها في لحظات انتظار!.

ومثل شقيقتها الصغرى، لفافة التبغ، منع الصغار من تدخينها، فإن فعلوا كان ذلك فعلاً مستهجناً منهم. وعلى العموم هي وقف على البالغين، يتساوى فيهم الرجال والنساء، وربما كانت كالشاربَين والطربوش، في زمان مضى، من علامات البلوغ.

هي آلة وافدة، بلا جدال، وتاريخ وجودها في بلادنا العربية لا يتعدى بضع مئات من السنين، وإن كانت لبلادنا مساهمة مؤكدة في تطويرها وفي منحها هذا الشكل المتميز. والراجح أنها تطورت من «الجبق»، وهي آلة يُدَخّن بها التبغ والتنباك، ويفهم من المصادر ومن مشهد الجبق الباقي عند بعض هواة جمع «الأنتيكا»، أن هذا الجبق وسط بين الغليون والنرجيلة.

ويمكن القول، من دون تحرج، إن ظهور النرجيلة في وطننا العربي، وقبله في تركيا وإيران، كان بعد التعرف إلى تبغ الهنود الحمر في القارة الأميركية، وكان المشاركون في رحلة كريستوفر كولومبوس الاستكشافية الى هناك قد شاهدوا الهنود الحمر يدخنونه فنقلوه معهم في رحلة العودة إلى أوروبا. وثمة من يرى أن أول ظهور التبغ في مصر كان سنة 1012هـ «1603م». والظاهر أن التبغ والتنباك أثارا جدالاً بين المسلمين، إذ أباحهما بعضهم وحرمهما آخرون. ويذكر الجبرتي في حوادث العام 1156هـ «1743م»، من كتابه «تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار»، أن الوالي العثماني أمر بمنع التدخين وعاقب المدخنين «انظر الجزء الثاني، طبعة دار الفارس في بيروت».

وتكاد المصادر القليلة التي ذكرت النرجيلة أن تجمع على مصدر واحد جاءت منه الى بلادنا العربية، هو تركيا. والذين وصفوا مجالسها قدّموا إلينا صورة لا تختلف كثيراً عن مجالسها اليوم، يتحدث هنري غيز، قنصل فرنسا في لبنان، في كتابه «بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن»، عن مباحثات أجراها ابراهيم باشا في لبنان في جو من الرتابة، حيث «أن تدخين الغليون يلعب دوراً مهماً في الاجتماعات الشرقية، فإذا تعب المدخن من مجّ الدخان ينفخ في غليونه، أو تقطع غرغرة النرجيلة، بين آونة وأخرى، سكينة تلك السهرات المملة «ج2، ص128».

وأكثر ما تعقد مجالس التدخين بالنرجيلة في المقاهي. وقد ذكر لنا أحد المدخنين في مقهى دبيبو في محلة الروشة من بيروت إن مجالس النرجيلة أحياناً ما تشهد عقد صفقات تجارية ناجحة. والملاحظ أن الكثير من اللوحات التي رسمها مرافقو المستشرقين يصور لنا مجالس النرجيلة في المقاهي.

وينقل جميل ريدان عن الرحالة عبدالرحمن سامي الذي قام برحلته في القرن التاسع عشر، قوله في كتابه «القول الحق في بيروت ودمشق»، انه شاهد في دمشق أكثر من مئة وعشرين مقهى، و«فيها يكثر عشاق الأركيلة» «وهي لغة اللبنانيين في النرجيلة» الذين يرونا متعة جميلة لا غنى عنها» انظر: الحياة 19/6/1991.

وأما تسمية النرجيلة فعلى صلةٍ بمرحلة من مراحل تطورها؛ فهي – بعد تفرعها من الجبق – كانت جوزة هند مفرغة، «والنارجيل» اسم لهذه الجوزة بالايرانية... في لسان العرب لابن منظور: «النارجيل جوز الهند، واحدته نارجيلة» «اللسان: نرجل». وفي إضافة موسوعية على إحدى طبعات «الصحاح» للجوهري، أضافها نديم وأسامة مرعشلي، نقلاً عن الوسيط: «النارجيلة – الشيشة»: «أداة يدخن بها التنباك، وكانت قاعدتها في الأصل من جوز الهند، ثم اتخذت من الزجاج أيضاً» «الصحاح: نارجيل».

تلميع نحاس النرجيلة آلياً

وأما تسميتها «الشيشة» فلأنها صارت من زجاج، والزجاج في الايرانية أيضاً معناه «الشيشة» كما تقول بعض المصادر. ومن اسمائها الشائعة: «الجوزة» في مصر و«الجراك» في المملكة العربية السعودية، إلخ...

و«الجراك» هذه تطلق أيضاً على التنباك الذي يعرف كذلك بالتنباك العجمي، والتنباك اللاذقاتي، وتنباك النكهة، و«المعسل» وهذا الأخير اسم أطلقه أهل مصر على التنباك الممزوج بالعسل الأسود.

وثمة مساهمة شعبية في «التاريخ» للنرجيلة؛ فبعض العامة يرى أن أميراً تركياً اسمه طهماز هو الذي اخترعها. ونسج خيال العموم باعثاً طريفاً على اختراعها، فقالوا إنَّ طهمازاً التركي هذا كان يعاني من «كركرة» مسموعة في معدته، وأدار أن يطمس هذه الكركرة بكركرة مصطنعة، فكانت النرجيلة وسيلته الى ذلك. ونحن نحسب أن بين هذه القصة وقول عموم اللبنانيين «طهمز ويطهمز» صلة قرابة؛ فالمطهمز هو الذي يطمس أمراً بأمر آخر.

ومع أن العموم يرون أن الصورة المرسومة على كثير من النراجيل الزجاجية هي صورة طهماز المذكور، فإن بعض المصادر تقول إنها صورة مظفر الدين شاه نحو قبل مئة وخمسين سنة.

على أية حال، بَعُدَ ما بيننا وبين نشأة النرجيلة في وطننا العربي. ولذلك فنحن نقنع بتاريخ قريب، وحقيقة أن محترفي صنعها منتشرون، وأسواق بيعها، منتشرة في كبريات المدن العربية؛ فهي في حارة اليمني بين باب شريف وسوق العلوي في مدينة جدة، وهي في سوق الحميدية في دمشق، وخان الخليلي في القاهرة، الخ... وهي اليوم معروفة حتى على الأرصفة وعربات الباعة المتجولين.

في بيروت عدة محترفين لصنع النرجيلة، بينهم المحترف مصطفى محمد شهاب الذي – كما قال لنا – ورث الحرفة عن والده؛ يقول: «كنت في الرابعة عشرة عندما عملت في هذه الصنعة مع المرحوم والدي... وهو ورثها عن جدي... جدي في الأصل كان يصنع نربيش الأركيلة، ثم طوّر صنعته فصار يصنع النرجيلة كاملة، باستثناء زجاجتها، وها نحن اليوم نصدر نراجيلنا الى الأسواق العربية كافة».

ولأن النرجيلة تقتنى أحياناً تحفة في صالونات غير المدخنين، ينوّع مصطفى شهاب في أشكال النراجيل ومادتها، ولذلك «يأتينا من يسأل عن الموديل لا عن مواصفات عملية».

ويتحدث شهاب مطولاً عن مراحل تطور النرجيلة من لندن كونها جوزة هند، مروراً بصنعها من التنك «الصفيح» وصولاً الى صنعها من زجاج «وأحياناً من كريستال، بناء على طلب الهواة»، ويقول إن الحرفة تطورت فلم يعد صنع النرجيلة يدوياً كلياً، «فقد استعنَّا بالآلة، نكبس بها النحاس... ولكننا مازلنا نستورد النربيتش من الشام، مع أننا نصنعه أيضاً، ويصنعه آخرون في لبنان... كذلك الزجاج نستورده من تركيا وسورية، وطرابلس في لبنان.

ويفصّل مصطفى شهاب أقسام النرجيلة؛ فهي: «زجاجة وقلب ورأس وصينية ونربيش وتنباك».

– فأين الفن في صناعة النرجيلة؟

* الفن في النقش... أدخلنا عليها حفراً يسمونه «دق الألماز».

– لذلك يقتنيها غير المدخنين؟

* كثيرون يشترونها باعتبارها تحفة... يجعلونها جزءاً من ديكور البيت.

السائحون الأجانب يشترونها، وبعضهم يدخن بها كالعرب... اليوم تنزل الى الأسواق نرجيلة داخل حقيبة كالسامسونايت، تعلق بالكتف، ويسهل نقلها بالسيارة في الرحلات.

– ثمة من يرى أن النرجيلة مضرة بالصحة أيضاً.

* في رأيي: النرجيلة أفضل من السيجارة... أكثر النيكوتين يعلق في الماء.

– تصنعون النرجيلة، فهل تدخنون بها؟

* أنا أدخن... المرحوم والدي لم يكن يدخن أبداً، وكان الجيران يستغربون.

النرجيلة، باعتبارات حرفية فنية، تحفة تقتنى في الصالونات. ولكنها في الأصل أداة للتسلية والتدخين وتسرية الهموم، كما يرى البعض. غير أن للأطباء رأياً آخر، حتى وهم يقبلون على النارجيلة كبقية خلق الله... النرجيلة مضرة كالسيجارة!

عشاق النرجيلة يصمون آذانهم عن رأي العلم، ويحملهم الشغف لرؤية الجانب الآخر من المسألة، وربما تلخصت رؤيتهم فيما كتبه الأديب جمال الدين الغيطاني في مجلة «العربي» الكويتية؛ قال إنها «صديق يساعد على التركيز واقتناص شوارد الفكر من هنا وهناك من دون أن يفرض مطالب خاصة، أو إزعاجات، أو يمر بمراحل التقلب من حب وكره وبغض، إذا ما تضاعفت الوحدة تبعث قرقرة الماء ونسة».

ذلك رأي الغيطاني... أو قل: ذلك رأي جميع الذين يرون جانباً من المسألة ويغضون النظر عن الجانب الآخر؛ فاسألوا الأطباء عن هذا الجانب الآخر!

مصطفى محمد شهاب ورث الحرفة عن الآباء